

الأخلاق في الإسلام

عبارة عن المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني ، والتي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على الوجه الأكمل والأتم ويتميز هذا النظام الإسلامي في الأخلاق بطابعين الأول : أنه ذو طابع إلهي ، بمعنى أنه مراد الله سبحانه وتعالى .

الثاني : أنه ذو طابع إنساني أي للإنسان مجهود ودخل في تحديد هذا النظام من الناحية العملية . وهذا النظام هو نظام العمل من أجل الحياة الخيرية ، وهو طراز السلوك وطريقة التعامل مع النفس والله والاجتمع . وهو نظام يتكامل فيه الجانب النظري مع الجانب العملي منه ، وهو ليس جزء من النظام الإسلامي العام بل هو جوهر الإسلام ولبه وروحه السارية في جميع نواحيه : إذ النظام الإسلامي -على وجه العموم- مبني على مبادئه الخلقية في الأساس ، بل إن الأخلاق هي جوهر الرسالات السماوية على الإطلاق فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » فالغرض من بعثته -صلى الله عليه وسلم- هو إتمام الأخلاق ، والعمل على تقويمها ، وإشاعة مكارمها ، بل الهدف من كل الرسالات هدف أخلاقي ، والدين نفسه هو حسن الخلق .

ولما للأخلاق من أهمية نجدها في جانب العقيدة حيث يربط الله سبحانه وتعالى ورسوله -صلى الله عليه وسلم- بين الإيمان وحسن الخلق ، ففي الحديث لما « سئل الرسول صلى الله عليه وسلم : أي المؤمنين أفضل إيمانا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : (أحسنهم أخلاقا) » ثم إن الإسلام عدّ الإيمان برا ، فقال تعالى : { لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ } وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « البر حسن الخلق » والبر صفة للعمل الأخلاقي أو هو اسم جامع لأنواع الخير .

وكما نجد الصلة بين الأخلاق والإيمان ، نجدها كذلك بين الأخلاق والعبادة إذ إن العبادة روح أخلاقية في جوهرها لأنها أداء للواجبات الإلهية . ونجدها في المعاملات -وهي الشق الثاني من الشريعة الإسلامية بصورة أكثر وضوحا . وهكذا نرى أن الإسلام قد ارتبطت جوانبه برباط أخلاقي ، لتحقيق غاية أخلاقية ، الأمر الذي يؤكد أن الأخلاق هي روح الإسلام ، وأن النظام التشريعي الإسلامي هو كيان مجسد لهذه الروح الأخلاقية .

الخلق نوعان أ- خلق حسن : وهو الأدب والفضيلة وتنتج عنه أقوال وأفعال جميلة عقلا وشرعا .

ب- خلق سيئ : وهو سوء الأدب والرذيلة وتنتج عنه أقوال وأفعال قبيحة عقلا وشرعا .

ولقد جاءت دعوته صلى الله عليه وسلم إلى فضائل الأخلاق سامية زاكية ، فقد روي عن أسامة بن شريك قال : « كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم كأنما على رؤوسنا الطير ، ما يتكلم منا متكلم ، إذ جاءه أناس فقالوا : من أحب عباد الله تعالى ؟ قال : (أحسنهم خلقا) » وحسن الخلق من أكثر الوسائل وأفضلها إيصالا للمرء للفوز بحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والظفر بقربه يوم القيامة حيث يقول : « إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا »

الأخلاق والممارسة الإيمانية

إن الأخلاق في الإسلام لا تقوم على نظريات مذهبية ، ولا مصالح فردية ، ولا عوامل بيئية تتبدل وتتلون تبعاً لها ، وإنما هي فيض من ينبوع الإيمان يشع نورها داخل النفس وخارجها ، فليس الأخلاق فضائل منفصلة ، وإنما هي حلقات متصلة في سلسلة واحدة ، عقيدته أخلاق ، وشريعته أخلاق ، لا يخرق المسلم إحداها إلا أحدث خرقاً في إيمانه .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن » وسئل صلى الله عليه وسلم : « أيكذب المؤمن ؟ قال : (لا) ثم تلا قوله تعالى : { إِمَّا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } » فالأخلاق دليل الإسلام وترجمته العملية ، وكلما كان الإيمان قوياً أثمر خلقاً قوياً .

دوام الأخلاق وثباتها

كما أن الأخلاق في الإسلام ليست لونا من الترف يمكن الاستغناء عنه عند اختلاف البيئة ، وليست ثوباً يرتديه الإنسان لموقف ثم ينزعه متى يشاء ، بل إنها ثوابت شأنها شأن الأفلاك والمدارات التي تتحرك فيها الكواكب لا تتغير بتغير الزمان لأنها الفطرة { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } .

السلوك وأنواعه

السلوك هو عمل الإنسان الإرادي المتجه نحو غاية معينة مقصودة ، تهدف إلى تحقيق مطالب جسدية أو نفسية أو روحية أو فكرية .

والسلوك نوعان ١ - خلقي : وهو ما كان نابعا عن صفة نفسية قابلة للمدح أو الذم كإعطاء الفقير ، والإنفاق في وجوه الخير حال كونه نابعا عن جود وكرم ، وكذلك الإقدام دفاعاً عن الحق ، وإزهاقاً للباطل حال كونه نابعا عن الشجاعة ، فهذه صفات حميدة لأنها من فضائل الأخلاق ، فآثارها تابعة لها في الحكم . روى أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : { « لا يحقرن أحدكم نفسه { قالوا : يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : { يرى أن عليه مقالا ، ثم لا يقول فيه ، فيقول الله عز وجل يوم القيامة ، ما منعك أن تقول كذا أو كذا ؟ فيقول : خشيت الناس ، فيقول الله (فإياي كنت أحق أن تخشى) »

٢ - سلوك إرادي غير خلقي : منه ما هو استجابة لغريزة جسدية كالأكل المباح عن جوع ، والشرب المباح عن ظمأ ، فقد يجوع الإنسان فيأكل ملبياً حاجة عضويته ، وهنا نقول : إن تناوله للطعام بتأثير دوافع الجوع سلوك لا علاقة له بميزان الأخلاق إيجاباً أو سلباً ، ولكن شره الزائد عن الحاجة والموقع له في المصرة سلوك ناتج عن خلق غير محمود ، أما قناعته فيه والتزامه بمقدار الحاجة - ذلك بضبط نفسه عن دوافع الشره - سلوك أخلاقي كريم ، ناشئ عن قوة إرادته العاقلة التي تمنعه عن مواقع الضرر .

ومن هذا يتبين لنا الآتي ١ - أن السلوك إما أن يكون سلوكاً خلقياً ، وإما يكون سلوكاً لا علاقة له بالأخلاق .

٢ - أن السلوك الإرادي غير الخلقي يكون استجابة لغرائز ، شريطة أن يكون على قدر الحاجة بلا زيادة ولا نقصان . فمثلاً : الأكل قدر الحاجة سلوك إرادي خلقي إذا كان استجابة لغريزة الجوع ، فإذا زاد عن الحاجة أو نقص تحول إلى سلوك أخلاقي ذميم عند الزيادة ، لأنه نابع عن صفة مرفوضة هي الشره ، أما عند النقص فيكون

محمودا إذا كان نابعا عن قناعة مع نية صالحة لأنها من الفضائل .
من خلال العرض السابق يتبين لنا أن الأخلاق تنقسم إلى قسمين الأول :

الأخلاق الفطرية

وقد دلت أحاديث كثيرة على أن من الأخلاق ما هو فطري ، يفاضل به الناس في أصل تكوينهم الفطري ، ومن ذلك ما روى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، والأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » وهذا الحديث دليل على فروق الهبات الفطرية الخلقية ، وفيه يشهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن خيار الناس في التكوين الفطري هم أكرمهم خلقا ، وهذا التكوين الخلقي يرافق الإنسان ويصاحبه على جميع أحواله .

وروي عن حذيفة بن اليمان قال : حدثنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حديثين ، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر حدثنا : « إن الأمانة نزلت في جدر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » في هذا الحديث بيان عن الأمانة في الناس وعما تصير إليه فيهم ، فقد أبان الرسول صلى الله عليه وسلم حقيقة من حقائق التكوين الخلقي الفطري في الناس ، وهذه الحقيقة تثبت أن الأصل في الناس أن يكونوا أئمة .
وقوله صلى الله عليه وسلم للمندر بن عازر : « إن فيك لخصلتين يحبهما الله الحلم والأناة ، فقال يا رسول الله كان بي أم حدثا ؟ قال : (بل قديم) فقال الحمد لله الذي جبلني على خصلتين يحبهما » .
مواقف عملية شاهدة على الأخلاق الفطرية -أ- هذا أبو بكر رضي الله عنه لم يشرب الخمر قط ، ولما سئل : بم كان يتجنبها في الجاهلية فقال : [كنت أصون عرضي وأحفظ مروءتي ، فإن من شرب الخمر كان مضيعا في عقله ومروءته]

ب- وهذه خديجة رضي الله عنها - حين جاءها رسول الله صلى الله عليه وسلم أول نبوءته وهو يقول « زملوني ، زملوني » قالت : والله لا يجزيك الله أبدا : إنك لتصل الرحم ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر .
ت- ومن خلال المثالين السابقين نلاحظ إن ذلك كان قبل البعثة ومع ذلك كانت هناك آداب وأخلاق متأصلة فيهم وقد أقرها الشرع فيما بعد ، مثل الكرم ، وإكرام الضيف وغيره مما اتصف به العرب قبل البعثة .
ث- وحين بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم - النساء قال : « بايعني على أن لا تشركن بالله شيئا إلى أن قال : (ولا ترين) قالت هند بنت عتبة : هل ترين الحرة ؟ » فسؤاها يدل على أنفة وعفة وطهارة ، وتلك هي الفطرة السوية التي فطرهن الله عليها تعرف الحق ، وتتجه للخير . والفطرة حين تسلم من العوارض المشوشة عليها ، والتأثيرات المخدرة لها وتسقط عنها الحوائل ، فإنها عندئذ تستقيم لربها وتعرف الحق ، وتدعو إلى كل خلق جميل .

الأخلاق المكتسبة

فكما أن هناك أخلاق فطرية ، كذلك بإمكان أي إنسان أن يكتسب بعض الفضائل والأخلاق ، وذلك بالتربية المقترنة بالإرادة والقيم ، والناس في ذلك متفاوتون بمدى سبقهم وارتقائهم في سلم الفضائل كما أن كل إنسان عاقل يستطيع بما وهبه الله من استعداد عام أن يتعلم نسبة من العلوم ، والقنون وأن يكتسب مقدارا ما من أي مهارة عملية من المهارات .

وتفاوت الاستعداد والطباع لا ينافي وجود استعداد عام صالح لاكتساب مقدار من الصفات الخلقية ، وفي حدود هذا الاستعداد العام ، وردت التكاليف الشرعية الربانية العامة ، ثم ترقى من بعده مسؤوليات الأفراد بحسب ما وهب الله كلا منهم من فطر ، وبحسب ما وهب كلا منهم من استعدادات خاصة . ووفق هذا الأساس ، وضع الإسلام قواعد التربية على الأخلاق الفاضلة .

أهمية الأخلاق في حياة البشر

إن أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفرادها أن يعيشوا متفاهمين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة .

ولو فرضنا وجود مجتمع من المجتمعات على أساس تبادل المنافع المادية فقط ، من غير أن يكون وراء ذلك غرض أسمى ، فإنه لا بد لسلامة هذا المجتمع من خلقي الثقة والأمانة على أقل التقدير .

فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات ، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لا بد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان ، تفكك أفراد المجتمع ، وتصارعوا ، وتناهبوا مصالحهم ، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار ثم الدمار .

فإذا كانت الأخلاق ضرورة في نظر المذاهب والفلسفات الأخرى فهي في نظر الإسلام أكثر ضرورة وأهمية ، ولهذا فقد جعلها مناط الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة ، فهو يعاقب الناس بالهلاك في الدنيا لفساد أخلاقهم .

قال تعالى : { وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا } وقال تعالى : { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } بل إن الإسلام يخضع الأعمال العلمية للمبادئ الأخلاقية ، سواء كان ذلك في مجال البحث أو في مجال النشر لتوصيله للناس . ولقد أهتم الإسلام بالأخلاق لأنها أمر لا بد منه للوام الحياة الاجتماعية وتقدمها من

الناحيتين المادية والمعنوية ، فالإنسان دائماً بحاجة ماسة إلى نظام خلقي يحقق حاجته الاجتماعية ، ويحول دون ميوله ونزعاته الشريرة ويوجهه إلى استخدام قواه في مجالات يعود نفعها عليه وعلى غيره . إن الإسلام يدرك تمام الإدراك ماذا يحدث لو أهملت المبادئ الأخلاقية في المجتمع ، وساد فيه الخيانة والغش ، والكذب والسرقة ، وسفك الدماء ، والتعدي على الحرمات والحقوق بكل أنواعها ، وتلاشت المعاني الإنسانية في علاقات الناس ، فلا محبة ولا مودة ، ولا نزاهة ولا تعاون ، ولا تراحم ولا إخلاص . إنه بلا شك سيكون المجتمع جحيماً لا يطاق ، ولا يمكن للحياة أن تدوم فيه ، لأن الإنسان بطبعه محتاج إلى الغير ، وبطبعه ينزع إلى التسلط والتجبر والأنانية والانتقام .

قال تعالى : { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ } لذا جاء الإسلام بأسس ومعايير يتحتم علينا السير وفقاً لها وهي ليست أسساً ومعايير وضعية ، وإنما وحي يوحى على هيئة أوامر ونواه ومباحات ومحظورات فمن أطاع الله أثابه ومن عصاه عاقبه . وتتماز الأخلاق الإسلامية بأنها واقعية عملية وليست مثالية ، كما أنها تؤكد حرية الإنسان واختياره ومسئوليته عن فعله ، وتتميز أيضاً بأنها إيجابية شاملة بعيدة عن الانحراف والغلو ، وهي بذلك صالحة لكل زمان ومكان . كما أن الإسلام شرع أحكاماً لحماية المجتمع من التردي الخلقي الذي يؤدي إلى الهلاك ، وذلك واضح في العقوبات الحدية والتعزيرية .

مصادر

الإلزام الخلقي

استكمل القرآن طرق الإلزام وأنواعها ، وسلط الموازعات على عقل المؤمن ثم على قلبه وضميره ، ونفسه وغرائزه ، وطباعه وحسده ، فانترع الدواء من مكنن الداء ، وشمل بهذا الإلزام الكبائر والصغائر ، والأخلاق والآداب ،

وجعل الفرد رقيباً على نفسه وعلى المجتمع ، وجعل المجتمع رقيباً على الفرد وتكاد هذه الالتزامات تنحصر في الآتي

١- الوحي الديني : حيث أن الدين يدل الإنسان على الخير ، والأخلاق الحميدة . قال تعالى : { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }

٢- العقل : فهو الذي يرشد الإنسان إلى الأخلاق الحميدة السليمة واجتناب الرذائل وقد ذكر القرآن الكريم البراهين العقلية ، والحكمة في كثير من العبادات والمعاملات ، من ذلك قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } . { إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ } وقوله تعالى : { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ }

٣- الإلزام بوازع التهيب والترغيب : سلكت التربية الإسلامية في الإلزام بهذا الوازع طرقاً كثيرة منها - التهيب بانتقام الله في الدنيا من العاصي الظالم قال تعالى : { لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } - والترغيب بما عنده سبحانه وتعالى . وقال تعالى : { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } قال تعالى : { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }

٤- الإلزام بوازع السلطان : إن بعض الناس لا ينفع معهم وازع العقل ، ولا وازع الترغيب والتهيب ، فكان لا بد من وازع أعظم في نفوسهم هو وازع السلطان ، وهو العقوبات التي فرضتها الشريعة ، وفوض أمرها إلى الحاكم

يقول الله تعالى : { وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } ويقول تعالى : { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ } فاجتماع الموازعات كلها في الإسلام استكمال لطرق الإلزام لكل من سول له شيطان الهرب من أمر الطاعة والالتزام .

آثار ثبات الأخلاق

يترتب على خاصية الثبات في الأخلاق الإسلامية الآثار والمزايا التالية ١- تخلص المجتمعات من ظاهرة القلق والإضرابات التي تسودها ، وتمكين الأواصر الإنسانية بالود والرحمة بينهما ، خلافاً للمجتمعات التي تتبدل فيها القيم الاجتماعية بحسب التغيرات الاقتصادية ، حيث نجدها تعيش في قلق واضطراب .

٢- التفريق بين الأخلاق والتقاليد ، فالأخلاق ثابتة لأنها جزء من الدين الموصى به ، وهي بذلك كيان متكامل رباني المصدر ، إنساني الهدف . أما التقاليد فمن طبيعتها أن تتغير كلما تغيرت مبررات وجودها ، ولكن ليس بالإمكان تغيير الأخلاق ، لأنها تقوم على أسس ثابتة كالحق والعدل والخير .

٣- إن عامل الثبات في الأخلاق يبعث الطمأنينة في حياة الفرد ، وفي حياة المجتمع . والثبات على الأخلاق مطلوب لأن الأمور بخواتيمها وبدون الاستقامة والثبات على الحق تفوت الثمرة ، ولا يصل المسلم إلى الغاية .

العدل

أقام الإسلام المجتمع على دعائم قوية ثابتة ، ومنها : العدل بين الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم . والعدل صفة خلقية كريمة تعني التزام الحق والإنصاف في كل أمر من أمور الحياة ، والبعد عن الظلم والبغي والعدوان والعدل في الإسلام هو مما يكمل أخلاق المسلم لما فيه من اعتدال واستقامة وحب للحق وهو كذلك صفة خلقية حمودة تدل على شهامة ومروءة من يتحلى بها وعلى كرامته واستقامته ، ورحمته وصفاء قلبه ، قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ } وقال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } وقد ورد في الحديث الشريف قوله -صلى الله عليه وسلم- : « تعدل بين اثنين صدقة » والإسلام يربأ بالمسلم عن الوقوع في أي لون من ألوان الظلم ، فالظالم مطرود من رحمة الله ، ولقد أوعد الله سبحانه وتعالى الظالمين بأشد العقوبات . قال تعالى : { أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } وقال تعالى : { وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ } كما تضمنت السنة النبوية الشريفة مجموعة من الأحاديث التي تقر العدل وتحرم الظلم منها -قوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضوان الله عليهم « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » -وروى أبو ذر -رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » ومن أجل إزالة الظلم وتوطيد العدل الكامل بين الناس ، قيد الله سبحانه وتعالى حرية بني البشر ببعض القيود وهي الحدود الشرعية التي جعلها واجبة التنفيذ . قال تعالى : تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون .

وقد طبق رسول الله صلى الله عليه وسلم مضمون هذه الآية ، وذلك لاستتاب العدل ، كما ثبت في المرأة المخزومية القرشبة التي سرقت ، وقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفيذ الحد عليها ، فعظم ذلك على رجال من قريش ، فطلبوا من أسامة بن زيد رضي الله عنه أن يشفع لها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما تحدث أسامة إليه صلى الله عليه وسلم في أمرها ، غضب صلى الله عليه وسلم وقال لأسامة مستكراً : « أتشفع في حد من حدود الله ، إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » ثم ختم حديثه بقوله صلى الله عليه وسلم « وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطع محمد يدها » وقد أعلن الإسلام مبدأ العدل في العقيدة والشريعة والأسرة والعهود والقضاء وكل شئون الحياة . ومن هنا صار العدل التزاماً للمسلم في كل ميادين حياته الروحية والمادية ، ومناطاً للغراب على صالح الأعمال ، فالعدل الحقيقي لا يكتمل بعيداً عن شريعة الله ، لأن شريعة الله تعالى هي العدل وبناء على هذا فقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم -كل مسلم يحتكم إلى قاضي وهو يعلم أنه ظالم لا مظلوم فإن جزاءه النار .

ومن مجالات العدل في الإسلام ، العدل مع الأهل ، وهو أن يحسن المسلم معاملات زوجته وأولاده ، ويساوى بينهم ، في المعاملة والعطية ، ولا يفضل بعضهم على بعض ، فلقد جاء في الحديث أن « صحابيا جاء إلى رسول الله

- صلى الله عليه وسلم - ليشهد على إعطائه ابنه بستانا ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم : أعطيت كل أولادك مثله ؟ قال الصحابي : لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فيني لا أشهد على ظلم » وأخيرا فلنعلم أن في توطيد العدل ومحاربة الظلم والحيلولة دون وقوعه إقرار للأمن وتحقيق للمساواة بين أفراد المجتمع ، والأمر الذي يمكن لكل فرد الوصول إلى حقه دون مشقة وعناء ، وإذا فقد العدل أكل الناس بعضهم حق بعض ، وسادت الفتن ، وكثرت الجرائم والمنكرات وأصبح كل فرد من أفراد المجتمع عرضة لاعتداء الأشرار ، وضعاف النفوس ، فتفقد الحياة بهجتها وجمالها .

- ٢ -

الحياء

الحياء خلق نبيل يحول بين من يتمتع به وبين فعل المحرمات وأتيان المنكرات ، ويصونه من الوقوع في الأوزار والآثام وهو كذلك الامتناع عن فعل كل ما يستقبحه العقل ولا يقبله النور السليم ، والكف عن كل ما لا يرضى به الخالق والمخلوق فإذا تحلى المسلم بهذا الخلق ، صحت سريره وعلايته ، وعامل الخلق بما يرضاه مولاه ، وكذلك فإن هذا المسلم الحي لا يقبل إلا الحلال من كل شيء وفي المطعم ، والمشرب ، والملبس وغير ذلك كما يعد الحياء دليلا صادقا على مقدار ما يتمتع به المرء من أدب وإيمان ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحياء من الإيمان » ولقد حثت الشريعة الإسلامية المسلمين على التحلي بفضيلة الحياء وبين النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا الخلق الشريف هو أبرز ما يتميز به الإسلام من فضائل فقال عليه الصلاة والسلام : « إن لكل دين خلقا ، وخلق الإسلام الحياء » وإذا استحکم خلق الحياء في نفس المسلم ، صده عن كل قبيح وقاده إلى كل أمر حسن طيب ، والحياء لا يأتي إلا بخير ، أما إذا ضعف هذا الخلق فلن يحل محله إلا السفه والوقاحة والفحش ، ويجد الإنسان نفسه أمام أبواب مفتوحة من السوء والمنكر فينزلق إليها لذا قال صلى الله عليه وسلم : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة في التمسك بخلق الحياء ، فقد قال الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري رضي الله عنه - واصفا رسول الله (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها فإذا رأى شيئا يكرهه عرفناه في وجهه) وإذا كان الحياء من الناس حسنا ، فإن الأحسن منه كثيرا أن يكون الحياء من الله تعالى لأنه يمنع الإنسان من العاصي دائما ، وقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه : « استحيوا من الله عز وجل حق الحياء » فقالوا : يا رسول الله إنا لنستحي من الله والحمد لله ، قال : (ليس كذلك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء ، أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء » وقد نقل عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قوله : (إني لأغتسل في البيت المظلم فأنطوي حياء من الله عز وجل)

- ٣ -

الحلم

الحلم هو ضبط النفس عند الغضب ، والصبر على الأذى ، من غير ضعف ولا عجز ابتغاء وجه الله تعالى وتنفلت قدرات الناس في ضبط النفس ، والصبر على الأذى ، فمنهم من يكون سريع الانفعال ويقابل الأذى دون النظر في

العواقب ، ومنهم من يتمالك نفسه ، ويكبح جماح غضبه ، ويتحلى بالصبر والحلم ويتلمس الأعذار والمبررات لمن أساء إليه ، وهذا هو الرجل الحليم وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي أصحابه رضوان الله عليهم بالتحلي بالحلم في تعاملهم ، ويحثهم عليه بنفس القدر الذي يحثهم على طلب العلم وكان مع ما أعطاه الله من خلق عظيم وصفات حميدة يدعو الله بأن يجعل الحلم زينة له فيقول : « اللهم أغني بالعلم ، وزيني بالحلم ، وأكرمني بالتقوى ، وجملي بالعافية » كما يرفع الله تعالى منزلة الرجل الحليم ، فإنه يناصره ويقف إلى جواره أمام من يعاديه ، فقد روي « أن رجلا جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني ، وأحسن إليهم ويسيتون إلي ، ويجهلون علي ، وأحلم عنهم ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : إن كان كما قلت فكأنما تسفهم لليل ، ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك » ويعد الحلم

وسيلة إلى تبوء المراكز الهامة في المجتمع ، وكانت العرب تقول في أمثالها : (من حلم ساد) ومن هؤلاء الذين تزعموا أقوامهم بسبب حلمهم عرابة بن أوس ، والأحنف بن قيس ، وروي أن معاوية بن أبي سفيان قال لعرابة بن أوس : بم سدت قومك يا عرابة ؟ فقال عرابة : يا أمير المؤمنين كنت أحلم عند جاهلهم ، وأعطي سائلهم ، وأسعى في حوائجهم ، فمن فعل منهم فعلي فهو مثلي ، ومن جاوزني فهو أفضل مني ، ومن قصر عني فأنا خير منه وإن الحلم فضيلة تقع بين رذيلتين متباعدتين ، فمن وراء يمين الحلم يأتي التباطؤ والكسل ، والتواني والإهمال ، وتبدل الطبع عند مشيرات الغضب ، ومن وراء يسار الحلم يأتي التسرع في الأمور واستعجال الأشياء قبل أوانها ، والذي جعل الحلم فضيلة خلقية هو اعتداله ، ومسايرته لمقتضى العقل السليم ، والآثار النافعة المفيدة الخيرة التي تترتب عليه ولقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم - أروع المثل للمسلمين في الحلم فقد روى البخاري عن أبي هريرة قال : « بال أعربي في المسجد ، فقام الناس ليقعوا فيه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : دعوه وأريقوا على بوله سجلا من ماء ، فإنما بعثتم مسيرين ، ولم تبعثوا معسرين » فقد علم

الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا أصحابه ، كيف يكون الحلم بالجاهلين وكيف يكون الرفق بهم . ومن حلم الرسول صلى الله عليه وسلم عدم دعائه على الذين آذوه من قومه ، وقد كان باستطاعته أن يدعو عليهم ، فيهلكهم الله ، ولحلمه بهم غاية يهدف إليها فهو يرحمهم لعلمهم بعد مدة يؤمنون فينجون من عذاب النار ، فيحلم بهم رجاء إصلاحهم روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال : « كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من الأنبياء صلوات الله عليهم ، ضربه قومه فأدموه ، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم أغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » والغضب هو مفتاح الشر ، فالشخص الذي يغضب سريعا ، كثيرا ما تصدر عنه تصرفات خاطئة ، لذا روي أن أبا الدرداء قال : « يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة ، قال رسول الله : صلى الله عليه وسلم لا تغضب ولك الجنة » وقد مدح عليه الصلاة والسلام أشبح عبد القيس فقال : « إنك فيك خصلتين يجبهما الله ، الحلم والأناة » ومن أن عمر بن عبد العزيز دخل المسجد في أحد الليالي ، وكان مظلم لا نور فيه فعثر برجل نائم ، فرفع الرجل رأسه إليه وقال : أعمى أنت ؟ فقال عمر بن عبد العزيز : لا ، فهم الشرطي الذي كان يصحبه بضرب الرجل ، فقال له عمر : (لا تفعل إنما سألتني أعمى أنا ؟ ، فقلت لا) وكما رغب الإسلام بالحلم وحث عليه ، حذر من الأخلاق المناقفة له ، وعمل على تربية المسلمين تربية عملية تأخذ بأيديهم حتى يكونوا حلماء .

وإن الحلم لقضية حيوية للمسلمين ، فهو يصون علاقاته مع أهله ، وجيرانه ، وزملائه ، وشركائه ، وكل من يتعامل معه ، وكلما زادت سلطاته وقدراته ونفوذه ، كان حلمه أنفع له ولمن يحكم .

